
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

بغداد عاصمة العباسيين
كانت مدينة الحضارة والنور

الدكتور عبد الحميد سند الجندى
المدرس بقسم اللغة العربية

لا يختلف المؤرخون فى أن لفظة (بغداد) أعجمية ، وقد اختلفوا اختلافا كبيراً فى ضبط حروفها ، فقالوا : بغداد وبغداذ وبغدان وبغدين وبغدام . . . الخ . وقد زعم بعضهم أن هذا اللفظ مركب من كلمتين (بغ) ومعناها البستان و (داد) وهى اسم صنم للعجم ، أى « بستان صنم » . وقال بعض المحققين إن هذا الاسم جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين (بغ) أى (الله) و (داد) أى (تأسست) أو (تأسيـــس) ، فيكون جملة المعنى (أسسها الله) (١) .

وعلى أية حال فليس فى الخلاف فى أصل اشتقاقها كبير فائدة . ومن أسمائها العربية « مدينة السلام » و « دار السلام » ، وبالأول كانت تضرب النقود العباسية ، وفى الثانى إشارة إلى الآية الكريمة : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

والذى يتتبع أحوال العباسيين فى صدر دولتهم ، يجد أنهم كانوا مولعين بالتفاؤل الدينى ، ويريدون من مدينتهم هذه أن تكون نموذجا للجنة التى

---

(١) انظر بغداد فى : لسان العرب ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، ومعجم البلدان ، وفى الاخير بحث مستفيض عنها .

وعد الله بها عباده المتقين . وقد أنشأوا فيها قصراً سموه (قصر الخلد) إشارة إلى جنة الخلد ، وآخر سموه (الفردوس) إشارة إلى جنة الفردوس .

وقد صرف العرب كلمة (بغداد) فقالوا : تبغدد الرجل إذا انتسب إليها أو تشبه بأهلها ، وتبغدد الرجل علينا إذا تكبر وتعاظم ، وفيه إشارة إلى ارتفاع شأن بغداد والبغداديين .

والحق أن تاريخ بغداد السياسى والاجتماعى والأدبى هو تاريخ الخلافة العباسية من جميع نواحيها ، إن لم يكن تاريخ العالم فى تلك الحقبة من الزمان خلال خمسة قرون . وكل أثر لهذه الدولة فى تكييف الأحداث وتوجيهها ، ينسب فى الغالب إلى هذه المدينة ويتصل بتاريخها .

ولا مراء فى أنه لم تصل مدينة من مدن الإسلام فى العصور الخالية إلى ما وصلت إليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار . كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح . فكما تضافرت الأيدى على عمرانها ورفعة شأنها ، تضافرت الخطوب والعوادى على تمزيق أديمها ومحو قديمها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدى به الباحث المنقب إلى تعيـــين المواضع التى كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمبانى الشامخة والمساجد الجامعة والمكتبات العظيمة التى كانت تملأ سمع الزمان وبصره . اللهم إلا بعض طلول لا تزال ماثلة .

وقد كان المسلمون فى أوائل القرن الثانى الهجرى يتدارسون علوما كثيرة منها الشرعية ومنها اللسانية ومنها الكونية . وكان جل اعتمادهم فى مدارستهم على التلقى والمشافهة وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم إذا ما طغى على عقولهم النسيان . وكانت الحافظة عندهم هى المرجع الأول وعليها المعول. وكانوا يقولون فى معرض

الذم : هل هو إلا لـَحَّـانة صحفى(١) » لمن يأخذ العلم من الصحف دون المشايخ، ومن هذه المادة اشتقوا كلمة (التصحيف) ، وهو الخطأ فى قراءة اللفظ. ولا يقع هذا عادة إلا إذا اعتمد القارىء على الصحيفة دون المشافهة .

فلما أنشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الإسلامية ، أقبل أهل الفضل إليها ، وأمها العلماء من كل صوب وجعلوها دار إقامتهم ، فأصبحت بذلك موئل العلوم الإسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى العلوم الشرقية والغربية ، فزخرت بالنور وازدهت بالعرفان وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت منار الحواضر ومحط رحال العلماء والفضلاء . وساعد على ذلك انتشار الكتابة الخطية وارتقاؤها حتى أصبحت فى مأمن من التصحيف .

ولقد كان عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، عصر ازدهار الدولة العباسية واستقرارها ، ثبتت فيه قواعدها وهيب سلطانها وعظم شأنها . ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التى اندلع أوارها بين الأمين والمأمون . ولم يكد يستقر الأمر للمأمون حتى عاد إلى الدولة هدوؤها واستقرارها . بيد أن الفساد بدأ يدب إليها بعد عهد الواثق .

وكانت العلائق السياسية بين بنى العباس وملوك غربى أوربا مثل (شارلمان) و (بيبن) على وئام تام ، يتبادل العباسيون معهم السفارات والهدايا ، وكانت بعثاتهم تفد إلى بغداد حيث يردون فيها مناهل العلم والحضارة، ويتعلمون فى بلاط الخليفة قواعد (الإتيكيت والبروتوكول) ويطبقون ذلك فى بلادهم وفى قصور ملوكهم . وكان العباسيون يرمون من توثيق أواصر الصداقة بينهم وبين هؤلاء الملوك، أن يقف الإفرنج لدولة الأمويين فى الأندلس بالمرصاد . ولهذا السبب نفسه أقام الرشيد أمامها حاجزاً فى إفريقية من دولة الأغالبة التى منحها الاستقلال الذاتى .

---

(١) لسان العرب

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء ، واشتد ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية ، فاكتظت بغداد بالنابغين فى علوم الدين والعباقرة فى العلوم اللسانية والمبرزين فى فنون السياسة والحرب . وكان كل من تفرد بضرب من ضروب المعرفة، يلقى من الخلفاء ألوانا من الإكرام وضروبا من سنى المنح والعطايا .

وفى الفترة التى ازدهرت فيها بغداد فى أول أمرها ، نبغ أئمة المذاهب الأربعة ، ودون مذهب أبى حنيفة ومالك . وزارها الإمام محمد بن إدريس الشافعى مرتين ، وفيها أملى مذهبه القديم ، ولقيه فيها الإمام أحمد بن حنبل ولقح مذهبه بآرائه .

وكان الجاحظ زعيم المعتزلة يتردد على بغداد ويناظر فيها محاولا نشر مذهبه ، وقد تصدى له أهل السنة وفى مقدمتهم العالم الأديب « ابن قتيبة » صاحب المؤلفات المشهورة .

وكانت بغداد أسوة الأمصار فى تأصيل العلوم وتدوينها، كالحديث واللغة والتاريخ والأدب بشطريه الشعر والنثر . وفيها نهضت حركة الترجمة التى كان لها أثر بعيد الغور فى العقلية العربية وفى جميع شئون الدولة .

ويذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور استقدم إلى بغداد كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له قدراً كبيراً من الكتب فى الطب والفلسفة والفلك ، وأشهرهم جورجيوس بن جبريل، ونوبخت المنجم، وابنه أبو سهل، وعبدالله بن المقفع، ومحمد بن إبراهيم الغزاوى . ولما جاء الرشيد أمر بإعادة النظر فى الكتب المترجمة ، كما أمر بترجمة كتب أخرى ، وعهد بذلك إلى جماعة من حكماء زمانه منهم طبيبه « يوحنا بن ماسويه » و « والحجاج بن مطر » . أما المأمون فكان الفارس المجلى فى تلك الحلبة ، فإنه ألف لجنة للترجمة على رأسها « حنين بن اسحاق » الذى كان يتقن العربية والسريانية والفارسية واليونانية ، ويقول ابن أبى أصيبعة : « إنه هو الذى أدخل كتاب العين بغداد»

وقد سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب ، وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه (١) » . وكان المأمون يغدق العطايا لهؤلاء المترجمين حتى ليقال « إنه كان يعطى حنين بن اسحق من الذهب زنة ماينقله من الكتب إلى العربى ، مثلا بمثل (٢) » . وكان هذا الخليفة العظيم يرسل البعثات إلى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب ، فيتلقفها المترجمون وينشرونها بين الناس بالعربية .

ومن يرد أن يعرف المزيد عن حركة الترجمة التى ازدهرت فى مدينة بغداد ، فليتصفح كتاب « التمدن الإسلامى » لجورجى زيدان ، وكتاب « عصر المأمون » للدكتور فريد رفاعى ، ففيهما حديث مفصل عن حركة الترجمة والكتب التى ترجمت وأسماء مترجميها .

وقد كان خلفاء بغداد فى عصرهم الأول ، يجلون العلماء ويحتفون بهم . وقد سهلوا نزوحهم إليها ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا فى إكرامهم ، وقربوهم ، وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم ، وعولوا على آرائهم . فلم يبق ذو قريحة أو علم إلا يمم دار السلام . ولا يزدهر علم إلا فى ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدى أهله . وكان هؤلاء الخلفاء من أشد الملوك رغبة فى العلم ، ولهذا عنوا بإنشاء خزائن الكتب ودورها ، وكان لهذه الدور شأن عظيم فى نشر الثقافة والمعرفة . ويقول الأستاذ « جويدى » : « من الأمور التى أحيت العلوم فى الأمة العربية إقامة دار الحكمة فى بغداد » (٣) . وكان فى تلك الدار خزانة كتب قيمة يجتمع فيها العلماء وطلاب المعرفة للدرس والبحث والمذاكرة ، وكان « علان الشعوبى » ينسخ من تلك الخزانة كتباً للرشيد والمأمون والبرامكة ، وكان « ابن أبى الحريش » يجلد هذه الكتب ، وهو معروف بهذه الصناعة (٤) .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعه ص ١٨٤ .

(٢) طبقات الأطباء ص ١٨٧ .

(٣) محاضرات الأستاذ جويدى ص ٩ .

(٤) الفهرست ص ١٠ .

ومما ساعد على ازدهار العلوم فى بغداد، التنافس الذى قام بين العرب والروم. فقد أنشأ الروم أيضاً داراً تشبه دار الحكمة فى القسطنطينية، وكان ملك الروم «قسطنطين» الثانى محباً للعلم، مشجعا لأهله كما يقول الأستاذ «جويدى».

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم فى اقتفاء أثر الخلفاء فى خدمة الأدب والعلم، والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم، فأنشأوا خزائن الكتب فى قصورهم، وسعوا إلى جمع الكتب من مظانها مجزلين العطاء لكل من ينقل لهم ضربا جديداً من المعارف. ومن أشهرهم: بنو موسى بن شاكر الذين يقول عنهم «ابن خلكان» وكانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وقد أنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم. (١) وكذلك آل بختيشوع، وآل حنين بن إسحاق، وآل الكرخى، وآل اسحاق الموصلى، وغيرهم من علية القوم فى بغداد.

وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية برزت لهما بغداد فى هذا المضمار، ثم أربت عليهما لما أقبل عليها أهل الفضل والعلم ينسلون من كل حدب. وما هى إلا سنوات قلائل حتى أصبحت بغداد مدينة النور والعرفان.

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يؤيد بعلم يكون مآله الانحلال، فانكبوا على العلوم والآداب ينهلون من بحورها، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم، وأصبح التعليم صناعة، فرخت عيشة المؤدبين، وغدا التأديب طريقا إلى المجد والسؤدد وسبيلا إلى مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم.

وقد نهضت فى بغداد العلوم اللسانية نهوضا حثيثا؛ ذلك أنه لما تفشى اللحن فى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة

---

(١) وفيات الأعيان ٢ — ٨٧ بولاق

وذوو النعرة العربية من هذا الهول، وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، وعلى السنة أن تطمس معالمها ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعليم وتدوين العلوم التي تساعد على تقويم اللسان ، وفى مقدمتها اللغة والنحو . وقد شد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصا على الدين الذى كان مظهرهم الأكبر ، فأغدقوا على القائمين بها الأموال،وحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم وخاصتهم . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا إليهم بالعلم والأدب واللغة ، ولم يعزّ على من فاته شرف الحسب والسلطان، أن يتطالّ إليه بالعلم والأدب . فنبغ منهم كثير من الموالى حتى الجوارى والقيان .

وفى بغداد ظهرت صناعة الورق واتسع نطاقها ، وقد ساعد ذلك على تنشيط الحركة العلمية والنهوض بها . ويقال إن البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم (١)، وانتشرت صناعه الورق ، فى جميع أنحاء الأمبراطورية الاسلامية . ويذكر «القلقشندى» أن الرشيد لما تولى الخلافة «أمر ألا يكتب الناس إلا فى الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة فى الورق إلى سائر الأقطار »(٢)

وقد أصبح من الميسور للعلماء — وجلهم فقراء — أن يحصلوا على الورق ليدونوا علومهم . ولو ظلت أدوات الكتابة على حالها الأولى لما نهضت الحركة العلمية هذا النهوض. ولا شك أن كثيرا مما كان يهمنا فى العصر الجاهلى من أحداث وأشعار وخطب وأحاديث قد ضاع بسبب عدم وجود الورق.

وهناك أمر له خطره اشتهرت به بغداد وفاقت فيه غيرها من المدن وكان بيّن الأثر فى النهضة العلمية، ذلك الأمر هو مجالس المناظرة التى كانت تنعقد

---

(١) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ١٧٢ .

(٢) صبح الأعشى ٢ — ٤٧٥ .

فى القصور والدور . وكان كثير من الخلفاء والوزراء وكبار القوم يشجعون هذه المناظرات ماديا وأدبيا ويشتركون فيها . وكان العلماء يستعدون لها كل الاستعداد طمعا فى جزيل العطاء وبعد الصيت والظفر على الخصوم . ومن أمثلة ذلك ما كان يحدث بين أصحاب أبى حنيفة وأصحاب مالك ، وبين الشافعى ومحمد بن الحسن ، وبين سيبويه والكسائى ، وغيرهم وغيرهم . وقد عقد السيوطى فى كتاب « الأشباه والنظائر » فصلا « فى المناظرات والمجالسات والفتاوى »[1] . وأورد « طيفور » فى « تاريخ بغداد » كثيرا من المناظرات المختلفة التى عقدت فى حضرة الخلفاء وبخاصة المأمون . وفى « أمالى الزجاجى » كثير من المناظرات التى حدثت بين علماء المصرين (البصرة والكوفة) فى بغداد .

وقد تدفق على حاضرة العباسيين الشعراء من كل فج ليشهدوا منافع لهم وليعرضوا أشعارهم فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء . وقد وجدوا هناك مجال القول ذا سعة ، وأجزل لهم رجال الدولة العطايا حتى قيل إنه لم يجتمع بباب خليفة من خلفاء الإسلام من الشعراء ما اجتمع بباب الرشيد .

وقد انتشر فى بغداد — إلى جانب ذلك — مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون . وكانت هذه المجالس ينبوعا ثرّاً للشعر وما يتبعه من لطيف الملح وطريف الأفاكيه . وكانت القينة تتوفر على مايستلزمه فنها من أدب وشعر حتى غدا منهن أديبات وشاعرات ، وكان ثمنها يقدر حسب تأدبها وظرفها . مثل « عريب » المغنية المشهورة .

وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها . وأصبح رجال الدولة ومن والاهم ينأون عن حياة التزمت والتخافت ، وراحوا يغشون مجالس الغناء على فضل من التعفف والتصون ، وغدت أكثرية الطبقات تألف ذلك من غير نكير .

(١) الأشباه والنظائر ٣/ ١٥ .

وكان يكثر فى البغداديين لثغة الراء بالغين كلثغة الباريسيين اليوم، ويعدون هذه اللثغة علامة الرقة. ويقول الجاحظ فى وصف البغداديين : إنهم يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة(١) .

وقد قيد البغداديون قوانين الظرف ، وكان الرجل البغدادى المثل الأعلى لغيره من سكان الأمصار الأخرى. فوصفوا الظريف بأنه «لا يتدخل فى حديث بين اثنين ، ولا يتكلم فيما لايفهمه ، ولا يتثاءب ، ولا يستنثر ، ولا يتجشأ ، ولا يتمطى فى المجالس ، ولا يمد رجليه ، ولا يمس أنفه ، ولا يسرع فى المشى ، ولا يجلس إلا حيث يجلس أمثاله ، ولا يأكل مما يتخذ فى الأسواق، ولا يماكس فى الشراء ، ولا يشارط صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ، وأن يكون طيب الرائحة نظيف البدن ، ولا يطول له ظفر ولا يسيل له أنف(٢) .

وقد كثر فى أهل بغداد الدعابة اللطيفة، ورُوِى لهم فيها الشىء الكثير . وكان فى بغداد كثير من المضحكين وحفاظ النوادر كأبى العبر وابن المغازى(٣) وغيرهما. وكانت مجالس الخلفاء والأمراء لاتخلو من هؤلاء المضحكين الظرفاء الذين يدخلون البهجة والإيناس فى قلوبهم، ويزينون مجالسهم بألوان من التطرية والمفاكهة .

وليس من شك فى أن أهل بغداد فى ذلك العهد قد نعموا بحرية فى القول وفى التفكير إلى غاية بعيدة المدى ، وسبب ذلك امتزاج العنصر العربى بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى . وإن «الجاحظ» ليبين لنا فى قولة موجزة مبلغ ما كان يتمتع به الناس آنذاك من حرية التفكير فيقول : وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه؟ وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقية وهبت ريح العلماء وكسد العى والجهل وقامت سوق البيان والعلم(٤) .

---

(١) كتاب الحيوان ٥/١٠٧ .
(٢) مروج الذهب ٢/٦٨ طبعة بولاق
(٣) تاريخ الطبرى ٥/٤٤ طبعة ليون .
(٤) كتاب الحيوان ١/٤٣ .

وكان للمأمون الفضل الأكبر في إطلاق الحرية الفكرية من عقالها . وبلغ من حبه لذلك أنه كان يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من زيغ ومروق . وكان يؤتى بالمارق يمثل بين يديه فيجادله بالتي هي أحسن حتى يهديه سواء السبيل. وقد قال للمرتد الخراساني : لأن أستحييك بحق، أحب إلى من أن أقتلك بحق. ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة(١). وأخذ يحاوره حتى أقام عليه الحجة فتاب إلى الله عن عقيدة وإيمان .

وكان الخلفاء قبله شديدى الوطأة على الزنادقة والملحدين ، لا تأخذهم في ذلك هوادة ولا رحمة ، وعلى رأسهم المهدى الذى نكل بالزنادقة أشد تنكيل ، وأنشأ لهم ديوانا خاصا سمى القائم عليه (صاحب الزنادقة)، وأوصى ابنه الهادى بأن يتجرد لهذه العصابة . وكان الرشيد يمنع الجدال في الدين ولا يحب أهل الكلام لانطلاق تفكيرهم(٢) .

ولما جاء المأمون أطلق القول وفسح في المناظرات . وكان هو نفسه يحاج الفقهاء في كثير من الأمور . وكان يأمر قاضى قضاته «يحيى بن أكثم» أن يحضر معه رجالا يحسنون الفقه والجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه وعليه سواده وطيلسانه وعمامته . فإذا استقربهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته . وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة . ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم : إنما بعثت لكم معشر القوم للمناظرة(٣) . ثم يلقى مسائل من الفقه ويرد على كل واحد منهم . وكان يتبين له عنادهم في بعض الأوقات . ويؤثر عنه أنه كان يجل علماء اليهود والنصارى ويحتفى بهم في مجلسه لعلمهم وثقافتهم وحذقهم في لغة العرب وإلمامهم بلغة اليونان والسريان وآدابهما .

---

(١) اقرأ هذه المجادلة في البيان والتبين ٣/٢١٢ .

(٢) ذكر المعتزلة للمرتضى ص ٣١.

(٣) العقد الفريد ٣/٤٢ .

ويبدو لنا أن المأمون كان يرمى من وراء عقد هذه المناظرات إلى اجتماع طوائف الأمة على ماهو أرضى وأصلح للدين . وكان يكره فى المناظرات الشتم والهذر والبذاءة لأن ذلك دليل الحصر واللؤم(١) . غير أنه لم يصل من مناظراته إلى ما كان يبتغيه ، فلم ير بدا من الاستعانة بسلطانه فى إقامة مايراه الحق ، ولا سيما فى مسألة خلق القرآن .

وبلغ من تمتع القوم بهـذه الحرية أن المجوس كانوا يعارضون علماء المسلمين ، وقد ذكر الجاحظ كثيرا من هذه المعارضات فى كتاب الحيوان .

والحق أن هذه الحرية الفكرية التى لم تـكن تقف عند حد، كانت سببا فى تشتيت العقائد وكثرة الفرق بين المسلمين فى بغداد وفى الأمصار الإسلامية. فبعد أن كان يجمعهم نظام واحد وعقيدة واحدة ، لايعرفون غير الكتاب والسنة،اختلفت كلمتهم حتى لقد أصبح المرء يحار فى كثرة الفرق مابين معتزلى وزيدى ورافضى وجبرى ومرجئى وعثمانى وجهمى . . . الخ فضلا عن المارقة والدهرية وأشباههما . وكان المأمون نفسه شيعيا ، ويفضل عليا وآله ، وكان لتشيعه هذا مظهر عملى معروف . وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيا ، وقاضى قضاته أحمد بن أبى دواد معتزليا. وربما تعددت المذاهب بين الإخوة فى البيت الواحد، مثل أولاد أبى الجعد وكانوا ستة،منهم اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان(٢) . ولاشك أن اتصال العرب بثمار القرائح الأجنبية مع تمتعهم بهذه الحرية الفكرية كان له أكبر الأثر فى تشتيت عقائد المسلمين.

وكانت مدينة بغداد واسعة الأرجاء ، متسعة العمران . وكانت تنقسم إلى محلات ، وكل محلة لها شوارعها الفسيحة ومساجدها وقصورها وأسواقها، ولها باب كبير يقف عليه الحراس ولا يسمحون لأحد بالدخول ليلا إلا إذا كان يحمل إذناً خاصاً . وكان الأمراء والسادة يشيدون القصور العظيمة ،

---

(١) محاضرات الأدباء ٢ ١١٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٢ — ١٩

ويقيمون بجانبها بيوتاً صغيرة للحاشية ، ولكل قصر بستانه الخاص وقد يكون فيه مسجد لأهله يؤدون فيه الفرائض .

وإنى لأختتم هذا المقال بكلمة قالها أحد المؤرخين يصف مدينة بغداد فى ذلك الحين ، قال :

« جلت فى هذه المدينة فرأيت فيها القصور العالية والمنازل المزخرفة والأسواق العامة والجوامع والحمامات الكثيرة . وسبب هذا أن الرشيد والبرامكة وجهوا عنايتهم إلى تزيينها وجمع المحاسن بها ، فبلغت من العظمة مارأيت ،وازدحم الناس فيها حتى زاد عددهم على ألف ألف وخمسمائة ألف . وهذا جمع لم يقدر لغيرها ، وهو يدل على ما وصلت إليه من اليمن والرخاء وطيب المقام . . ويتعذر علىَّ أن أصف محاسنها وهى التى تزهو ببهاء الخلافة وعيون الأعيان وأهل النعمة والثراء . . . فكلهم فى سعة من الغنى وترف من الحضارة لم تشهده العيون من قبل . وقد جرى العامة وراء الأمراء والكبراء فى ذلك ، وتشبهوا بالرشيد فى إقباله على الدنيا وطلب النعيم ، حتى صدق عليهم المثل القائل (الناس على دين ملوكهم) (١) .

---

(١) عن كتاب « حضارة الإسلام فى دار السلام » بتصرف .